الألوكة
www.alukah.net

على بصيرة

جيل تربى على عين النبوة

عمر عبيد حسنة

المكتب الاسلامي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على بصيرة

جيل تربى
على عين النبوة

يقول رسول الله ﷺ: «**لا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي**» (أخرجه مسلم)

عمر عبيد حسنه

الطبعة الأولى

ذو الحجة 1435ه - تشرين أول (أكتوبر) 2014م

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مقدمة

الحمد لله، الذي أنعم علينا بنعمة الإسلام، وجعلنا من أهل الاتباع لجيل الصحابة الكرام، الذي نُشِّئ على تعاليم الوحي وتربية النبوة، الذي رضي الله عنهم، فقال تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ (البينة:8)؛ والصلاة والسلام على من وصف أصحابه بأنهم «**أَمَنَةٌ**» لأُمَّتِه، وعظّم جريمة سبِّهم والإساءة إليهم، فقال ﷺ:

«**لا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ**» (أخرجه مسلم).

وبعد،

فهذه مجموعة من الخواطر والرؤى والأفكار والبصائر مستوحاة من نصوص الوحي وهداياته، في القرآن والسنة وسيرة خير القرون، كتبت، في أزمان مختلفة، وقد تكون متباعدة، حول جيل الصحابة، وما اختُص وتميز به من خصائص وصفات ومعان، جعلته أنموذجاً مؤهلاً للاقتداء والاتباع؛ وقد قمنا بجمعها وترتيبها وتبويبها ومن ثمّ إعادة نشرها، لما وجدنا فيها من فوائد ثقافية وعقلية وحاجة شرعية، في هذا الوقت، الذي يموج فيه العالم الإسلامي عامة بكثير من الفتن والاضطرابات، التي باتت تستهوي كثيراً من الناس، الذين يحسنون الهدم ولا يطيقون البناء.

ولئن كانت كثير من الفتن اليوم هي رجع الصدى للفتنة الكبرى، ومعاودة إيقاظها من مرقدها، التي ما تزال تداعياتها وارتداداتها تشكل فخاخاً تُنصب للمسلمين عبر التاريخ، تهدر طاقاتهم، وتمزق وحدتهم، حيث ما يزال النفاق وأقنعته من ألوان الباطنية والشعوبية، الذي عمل على صناعتها ورعايتها، هو المهد، الذي تنمو فيه وعلى جوانيه كل العلل والإصابات، التي تنهك الجسد الإسلامي، فإن فتنة استهداف الصحابة الكرام، ومحاولة النيْل منهم، والحط من قدرهم، والإساءة إليهم، وتشويه رمزيتهم الخالدة في النفوس، تبقى هي الأكثر خطورة.

وهذا ما يؤكد أهمية هذه الرسالة، التي تجيء كنوع من المبادرة بالتأصيل والتوجه نحو العمل الصالح، استجابة لدعوة الرسول ﷺ: «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا**» (أخرجه مسلم).

إن المخرج من الفتن، إضافة إلى المبادرة بالعمل الصالح، الإعراض عن الخوض مع الخائضين، الذين يستخدمون الأسلحة كافة لتكون فتنة، والتبصر بأساليب الاختراق وصناعة الفتن، وحسن اختيار مواطن الاقتداء في السيرة، وطرائق الاتباع بإحسان في حياة الصحابة، رضوان الله عليهم.

فلقد سُئل سيدنا عبد الله بْنِ عُمَر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فِي فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ, رضي الله عنهما، عن عدم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

استجابته وخروجه، والله تعالى يقول: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾ (البقرة:193) فَقَالَ كلمتــه، التي تعتبر أنموذجاً ومحلاً للاقتداء في مثل هذا الركام الكثيف من التضليل الثقافي:

«قَاتَلْنَا حَتَّى لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ وَكَانَ الدِّينُ لِلَّهِ، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِغَيْــرِ اللَّهِ» (أخرجه الْبُخَارِيُّ).

وقد يكون من المناسب هنا أن نستذكر هنا قولة بعض المؤرخين قديماً: «إن روما لم تتنصــر، ولكــن النصرانية ترومت»! ذلك أن كثيرة هي الثقافات والجاهليات، التي حملتها بعض الشعوب إلى ساحة هذا الدين.

وختاماً، نقول:

هل انتقلت تلك العلل إلينا من بعض المنافقين، الذين لم يحسن إسلامهم، فبدل أن يسلموا حاولوا تشويه الإسلام من داخله بثقافاتهم وعقائدهم؟!

لكن الله غالب على أمره، فهو الذي نزَّل الذكر وتعهد بحفظه، و«الإِسْلامُ يَعْلُوَ، وَلا يُعْلَى عَلَيْهِ».

وهذه الفتن ، على مخاطرها، التي يشتد أوراها في هذه الحقبة من الوهن الحضاري، لا تخرج عن كونها عقوبات على تقصير، ومنبهات على مواطن الخلل لاستدراكها، والله تعالى يقول: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ ﴾ (آل عمران:111).

والله المستعان.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

جيل تربى على عين النبوة

الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الإيمان، وجعلنا بفضله من جند الإسلام، الحاملين لرسالته، المبلغين لدعوته، الوارثين لنبوته، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده.

والصلاة والسلام على من اجتمعت فيه كمالات الأنبياء، وانتهت إليه خصائص وأصول الرسالات، فكَمُل به الدين، وكان اللبنة، وكان خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، الذين أثنى الله عليهم في كتابه الكريم الخالد إلى يوم الدين، لإيمانهم بالله، وتصديقهم لنبيه، وعلو مترلتهم في ذلك، وسَبْقِهم، ونُصْرَتِهم، وجهادهم بالأموال والأنفس، فغفر الله لهم، ورحمهم، ورضي عنهم، ورضوا عنه، وذلك لمن خَشِيَ ربه.

لذلك، فإن أي استهدافٍ أو محاولة هدمٍ لجيل الأصحاب، الذي تربى على عين النبوة، أو لبعض رموزه، من مثل الخلفاء الراشدين والصحابة الأقربين بشكل خاص، هو في حقيقته استهدافٌ لقيم الدين، واستهدافٌ لصدقية القرآن الكريم، الذي أثنى عليهم، فقال تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ (التوبة:100)، وتخريبٌ لوحدة المسلمين، وتعطيل للمنهج الصحيح والمأمون لكيفية تترل القيم الإسلامية على واقع الناس، وتجسيده في حياتهم.

وقد يكون من المفيد، ونحن في هذا المقام نتحدث عن أصحاب رسول الله ﷺ وقادته العِظَام، أن نأتي على ذكر بعض ما ورد في القرآن والسنة من صفاتهم وخصائصهم وجهادهم، لندرك موقع هذا الجيل الرباني، الذي تربَّى على عين النبوة وتسديد الوحي، فكان قرنه خير القرون المشهود لها، وكانت أُمَّته خيرَ أمةٍ أُخْرِجَتْ للناس، وكان الجيل المعيار، والجيل القدوة، وقد شهد له الرسول ﷺ بأنه خير القرون، لِمَا تَمَتَّعَ به من المجاهدة والجهاد، والخصائص والصفات، التي تتمثل قيم الإسلام، وتثير الاقتداء.

قال تعالى: ﴿ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة:88-89).

وقال عز وجل: ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

(التوبة:100).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة:117).

وقال عز من قائل: ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح:18-19).

وقال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر:8-9).

وقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ (الفتح:29).

وقال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الذينَ يَلُونَهم، ثُمَّ الذين يَلُونهم**» (أخرجه البُخاري).

وقال، عليه الصلاة والسلام: «**لا تَسُبُّوا أصحَابِي، فلو أنَّ أَحَدَكُم أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِم ولا نَصِيفَه**» (أخرجه البخاري)؛ وفي رواية لمسلم: «**لا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي**».

فهؤلاء الأصحاب، رضي الله عنهم، يعتبرون من المعالم الرئيسة على طريق إعادة البناء الثقافي وتحقيق الوعي الحضاري، وإخراج الأمة المسلمة، واسترداد دورها العالمي، وإحياء التزامها ووعيها برسالتها الإنسانية، التي كانت الغاية منها إلحاق الرحمة بالعالمين، استجابة لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:107).

ذلك أن استرداد دور الأمة العالمي، وإحياء التزامها برسالتها، وإعادة بناء خيريتها، وتحقيق إخراجها الجديد للناس، لا يتأتى إلا بتلمس ظروف وشروط ميلادها الأول، أو بتعبير أدق: إخراجها الأول، وامتلاك القدرة على التحقق بالمرجعية، وخصائص خير القرون، وعلى الأخص مرحلة السيرة وجيل الصحابة، الذي شهد له الرسول ﷺ بالخيرية، ومن ثم التوغل في التاريخ العام للأمم، والاهتداء خاصة بالنماذج، التي عرض لها القرآن الكريم فيما اصطلح عليه بالقصص القرآني، والمسيرة التاريخية للأمة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المسلمة، والإصابات التي لحقت بها حتى صارت إلى ما هي عليه اليوم، وتحديد مواطن الخلل وأسبابه، في ضوء السنن الإلهية المطردة، وأقدار الله تعالى في السقوط والنهوض.

- محل الاقتداء والتأسي:

لذلك، فإن الفترة أو المرحلة الأحق بالبحث والدراسة والتحليل باستمرار، هي مرحلة السيرة النبوية والخلافة الراشدة، وحقبة خير القرون؛ لأنها تُصوِّب المسار، وتمثل المعيار والمرجعية، وتشكل نقطة الانطلاق، وتحقق الارتكاز الحضاري، وتوضح الملامح والقسمات المميزة للشخصية الحضارية الإسلامية التاريخية.

كما تمثل البعد الإنساني والعالمي للرسالة الإسلامية، والفترة الأمينة والمأمونة والسابقة، لتحويل المبادئ إلى برامج، والقيم إلى خطط، والفكر إلى فعل، والنظرية إلى تطبيق، وإدراك مقاصد الدين، والانطلاق في الاجتهاد، والحوار، والمشاورة، والمفاكرة، والمناظرة، إلى الآفاق والأبعاد المستقبلية، التي تتلاءم مع خلود الإسلام ومرونته، وقدرته على العطاء في كل زمان ومكان.

فتجربة هذا الجيل الرباني، واجتهادهم، وفعلهم، وتنزيلهم للقيم على الواقع، جزء من خلود هذا الدين، ووسائل إيضاح معينة وخالدة لكيفية التعامل مع النصوص في الكتاب والسنة، في الظروف والأحوال المختلفة.

- جيل الاتباع:

وقد تكون مشكلة الكثير ممن يدَّعون التأسي بهذا الجيل الفريد اليوم، هي في الانحباس ضمن أطر الأشكال، التي هي أقرب ما تكون إلى المحاكاة، والغفلة عن المقاصد الشرعية، وتأسيس الفقه المطلوب للواقع في ضوء ذلك الفهم وتلك المرجعية، ذلك أن التقليد الذي يعني المحاكاة والببغائية، غير الاتباع الذي يعني العلم والإحاطة وإدراك مناط الحكم ومقاصده.

إن الانحباس ضمن الأشكال، أو المحاكاة للمبادئ، بعيدًا عن النفاذ إلى المعاني والمقاصد وبلوغ الرشد، بمقدور حتى الأطفال، ويمكن أن تعتبر من أدنى وظائف العقل، إن كان للعقل دَخْلٌ في ذلك، أما النفاذ إلى المعاني والمقاصد وبلوغ الرشد، فهي الإشكالية التي نعاني من غيابها اليوم.

وأعتقد أنه من الأهمية بمكان، تحرير المقاصد والمعاني من قيود الأشخاص، والزمان والمكان، وأسباب النزول والورود، ومن ثم توليد الرؤى وتحقيق الاجتهاد في ضوء ذلك، وتنزيله على الواقع، وتقويمه به، ذلك أن العجز عن التجريد، وتجاوز الصورة إلى الحقيقة، والشكل إلى المضامين والمقاصد، يورث العقم في التوليد والامتداد.. فحصر البطولة في نطاق البطل، والكرم في نطاق الكريم، والتقوى في إطار التقي،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والإيثار في إطار المؤثر، وعدم تجريدها وجعلها صفة وإمكانية بمقدور الجميع الوصول إليها، سوف يجعل حاجزًا نفسيًا وجدارًا سميكًا، لا يمكنُ أَن نَظْهَرَهُ في التأسي بجيل خير القرون.

ولا أدري، كيف يتحقق معنى الخلود ويمتد، ويمتلك الإسلام الإنتاج والعطاء والبناء في كل زمان ومكان، إذا كانت المعاني والخصائص المطلوبة، محبوسة ومرهونة في إطار الجيل الأول، دون إمكانية المقاربة لسواه؟! وكيف يمكن أن نحقق بطولات إذا كانت البطولة محصورة في نطاق بطل لا تتعداه، الأمر الذي سوف يجعلنا عاجزين عن أن نرنو إليها؟

- أبو بكر الصديق ﷺ أنموذجاً:

قد يكون من أهم الوسائل التربوية: السعي إلى تقديم النماذج، التي جسدت الوحي في حياتها، لتكون أسوة للأجيال، ولعل في مقدمة تلك النماذج سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ الذي تسامى وارتقى بخصائصه وصفاته إلى الملأ الأعلى، ويكفيه فضلاً وتميزاً قولة الرسول ﷺ: «... **لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا**» (أخرجه البخاري).

هو صاحب الرسول ﷺ في رحلة النبوة، وثاني اثنين إذ هما في الغار، الذي وضع الأسس والمنطلقات الفكرية والعملية لدولة الإسلام بقيادة البشر بعد توقف الوحي، فهو صاحب أول عقد اجتماعي سياسي عالمي في السياسة والحكم عرفته البشرية، قبل أن يصل إليه العالم بقرون: «أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ»؛ «إِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي؛ وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي»؛ وأصّل لمعادلة الحكم العادل ومقومات الحكم العادل: «الضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» (السيرة النبوية لابن هشام).

وكان الالتزام بقيم النبوة عنوان حياته وغاية أهدافه: «إِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ، وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ»؛ إنه رمز الاتباع وأنموذجه الممتد في الحياة الإسلامية، فلقد كانت معادلة الوحي والعقل، وانسجام عطائها واضحة أشد الوضوح عنده، وبدا ذلك جلياً في حادثة الإسراء، حيث الإشكالية الكبرى، التي لم يكد ينجو منها أحد، عندما أُخبر، فقال: «لَئِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ»، فلا بد أن نتحقق من صحة القول أولاً، ومن ثمّ يأتي الصدق من لوازم الإيمان بالنبوة: «إِنِّي لأُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ، أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ فِي غُدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ؛ فَلِذَلِكَ سُمِّيَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقَ» (أخرجه الحاكم في المستدرك).

فأية جريمة أكبر من محاولة النَيْل منه؟!

وهل بعد النَيْل منه ذرة من إيمان أو إسلام؟

- من تعظيم البطل إلى صناعة البطولة:

إن المتأمل في الرسالة والحضارة الإسلامية، سوف يتحقق أنها على عكس سائر الحضارات الأخرى، السائد منها والبائد، عَظَّمَت المعاني، عَظَّمَت البطولة، لتكون مجالاً للتنافس وتناول الجميع، و لم تعظم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

البطل إلا بمقدار ما يمنحها ذلك من إمكانية التطبيق والتجسيد بالواقع، وتحويلها من المثال والخيال إلى الحقيقة والواقع المعيش.

لذلك أرى أن الذين يحاولون اقتفاء آثار السلف، أو بعبارة أدق آثار الصحابة، ويقتصرون على الأشكال، وطرائق الممارسات، دون محاولة النفاذ إلى الفقه والمضمون، ويخادعون أنفسهم أنهم على طريق التدين السليم، بحاجة إلى المراجعة وإعادة النظر، ذلك أنهم امتلكوا الأشكال، وافتقدوا الأعمال، فأصبحوا عبئًا على منهج الصحابة والسلف، وحاجزًا دون امتلاك القدرة على التعامل الصحيح مع خصائص جيل خير القرون، وعبئًا على أنفسهم أيضًا، لعجزهم عن التغيير والإنجاز المأمول.

وقد يكون من المفيد التأكيد باستمرار على أهميةِ استقراء وتجريد الخصائص والصفات والمعاني، التي جعلت من جيل الصحابة خيرَ القرون والتي جعلت منه معيارًا للأجيال، وأنموذجًا للإنجاز: خصائص الخيرية، وصفات العظمة، لينعكس ذلك على مناهجنا في التعليم والإعلام والتربية، وكل وسائل التشكيل الثقافي، وبذلك نتحول من الاقتصار على الفخر والاعتزاز، إلى مرحلة الإنجاز والتأسي العملي، الذي يقود إلى تغيير الحال، أي لابد من جدولة الخصائص والصفات، التي بها كانت الخيرية، ومن ثم وضع المناهج التربوية والثقافية، الموصلة إلى الإنتاج المأمول، ذلك أن قول الرسول ﷺ: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ...**» (البخاري)، وقوله: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ...**» (الترمذي)، لابد أن يستدعي الاستفهام الكبير:

ما هي الخصائص والصفات، التي بها كانت الخيرية، وكيف يمكن تلمسها، والاقتراب ما أمكن من هذا الجيل الرباني، ليمتد الخلود للرسالة، والإنتاج للجيل المأمول؟ وإلاَّ لكان إخبار الرسول ﷺ ليس له مدلول تطبيقي في حياة المسلمين، خاصة وأن القرآن الكريم قَدَّم الأنموذج، ونَصَّ على بعض الخصائص والصفات، التي استحق بها جيل الصحابة خيرية القرون جميعها.

ولذلك كانت دراسة السير والمغازي وتعلمها، كجانب عملي تطبيقي، يعتبر موازيًا ومكملاً لدراسة السورة من القرآن، لتعلم العلم وتعلم العمل جميعًا.. يقول عليُّ بن الحسين، رضي الله عنه: «كُنَّا نُعَلَّمُ مَغَازِيَ النَّبِيِّ ﷺ وَسَرَايَاهُ كَمَا نُعَلَّمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ».. وكان الإمام الزهري، رحمه الله، يقول: «فِي عِلْمِ الْمَغَازِي عِلْمُ الآخِرَةِ وَالدُّنْيَا» (البداية والنهاية، 242/3).

- جيل المعيارية:

وهنا قضية لابد من التوقف عندها ولو قليلاً، وهي أن للصحابة الكرام، رضي الله عنهم، موقعًا متميزًا في مسيرة الإنسانية التاريخية، بل في مسيرة النبوة وصَحْبِها ورَكْبِها الممتد، فشأنُهُم ليسَ كَشَأنِ غيرِهِم، وعمَلُهُم لَمْ يُدَانِهِ أحدٌ ممنْ سَبَقَهُمْ، وَلَنْ يَلْحَقَ بِهِ أَحَدٌ ممنْ جَاءَ بَعْدَهُم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لقد كانوا معجزة خالدة من معجزات الإسلام، ومعيارًا لكل جيل في كل زمان ومكان.

ولنحاول فتح بعض النوافذ، التي تؤكد ذلك وتُعَزِّزُه:

فلقد قال بنو إسرائيل لموسى، عليه السلام، وهو مِن أُولِي العزم من الرسل، ومن أكبر أنبيائهم وأعظمهم شأنًا:

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ (المائدة:22-25).

فإذا قَابَلْنَا هذا الكلام اليوم بما قاله الصحابة، رضوان الله عليهم، يوم بدر:

«وَاللَّهِ لا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا، إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ، وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ، فَوَ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سِرْتَ بِنَا إِلَى بِرْكِ الْغِمَادِ لَجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ، حَتَّى تَبْلُغَهُ» (ابن هشام، السيرة النبوية)، أدركنا تميز هذا الجيل في تاريخ النبوة الطويل.

ونقدم أنموذجًا آخر من موقف حواريّ عيسى، عليه السلام، وهم خُلَّصُهُ وأنصارُه وناصِرُوه، ومع ذلك فقد كانوا غير عارفين حق المعرفة لربهم، لذلك كانوا مترددين في الالتفاف حوله، والتضحية في سبيل دينه وشريعته، يقول تعالى حاكياً قصتهم:

﴿ إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (المائدة:112-114).

فإذا قابلنا ذلك بموقف الصحابة رضي الله عنهم، بعد العودة من رحلة الإسراء -وقد كانت معجزةً عَصِيَّةً على العقل- والذي لَخَّصَه موقفُ أبي بكر ﷺ بقوله:

«لَئِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ» (أخرجه الحاكم في المستدرك)، أدْرَكْنَا موقعَ هذا الجيلِ الفريدِ في تاريخِ النبوات.

بذلك وغيره كثير، ندرك موقع جيل الصحابة، رضي الله عنهم، وندرك بعض أبعاد الخيرية، التي شهد بها الرسول ﷺ لهذا الجيل.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لقد كان لجيل الصحابة هذه المكانة الفريدة من الخيرية، وهذا التميز في تاريخ البشرية بشكل عام، وفي تاريخ النبوة بشكل خاص، وكانوا الجيل، الذي تجسَّدَت الرسالة في حياتهم، وكانوا الجيل، الذي سوف يبقى يمثل أنموذج التأسي، وأنهم الجيل، الذي رضي الله عنه بنص القرآن: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾، ووصلوا إلى مرحلة من الرِّضى والالتزام والانضباط والإذعان والاطمئنان إلى ما هم عليه من الخير، فوصفهم القرآن بقوله: ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾.

وقد وصفَ الرسولُ ﷺ موقعهم بالنسبة للأمة، بقوله:

«النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ» (أخرجه مسلم).

وأعتقد أن الدلالة واضحة جدًا في وصف الرسول ﷺ لجيل الصحابة:

فإن ذهابَ النجوم يعني اختلال نظام الكون، وتَوَقُّف الحياة الدنيا..

وإذا غابت سنة الرسول ﷺ ومعرفة الوحي، انتشرتِ البدعةُ، واختلتْ مسيرةُ الحياة، وعَمَّتِ الفوضى، وضلَّ الرأي..

وإذا غُيِّبَ جيلُ الصحابةِ، أو قامت محاولات للتشكيك فيه والحطّ من قدره، افْتَقَدَتِ الأمةُ المرجعية، واهتزَ الارتكازُ الحضاري، واعتلَّ ميزانُ التطبيق، ودخلتِ الأمةُ في التنازعِ والحيرةِ، والارتباك والفشل، والتبعثر، وعواصف الأهواء.

ولقد أجمع أهل السنة والجماعة على عدالة الصحابة في الرواية، ونقل الحديث.. والعدالة لا تعني العصمة عن الخطأ بحال من الأحوال، قال الخطيب، رحمه الله، في «الكفاية»:

«وَالأَخْبَارُ فِي هَذَا الْمَعْنَى تَتَّسِعُ، وَكُلُّهَا مُطَابِقَةٌ لِمَا وَرَدَ فِي نَصِّ الْقُرْآنِ، وَجَمِيعُ ذَلِكَ يَقْتَضِي طَهَارَةَ الصَّحَابَةِ، وَالْقَطْعَ عَلَى تَعْدِيلِهِمْ وَنَزَاهَتِهِمْ، فَلا يَحْتَاجُ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَعَ تَعْدِيلِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمُ، الْمُطَّلِعِ عَلَى بَوَاطِنِهِمْ، إِلَى تَعْدِيلِ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ لَهُ، فَهُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ، إِلا أَنْ يَثْبُتَ عَلَى أَحَدٍ ارْتِكَابُ مَا لا يَحْتَمِلُ إِلا قَصْدَ الْمَعْصِيَةِ، وَالْخُرُوجِ مِنْ بَابِ التَّأْوِيلِ، فَيُحْكَمُ بِسُقُوطِ الْعَدَالَةِ، وَقَدْ بَرَّأَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ، وَرَفَعَ أَقْدَارَهُمْ عِنْدَهُ، عَلَى أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَرِدْ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ فِيهِمْ شَيْءٌ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ لأَوْجَبَتِ الْحَالُ، الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، مِنَ الْهِجْرَةِ، وَالْجِهَادِ، وَالنُّصْرَةِ، وَبَذْلِ الْمُهَجِ وَالأَمْوَالِ، وَقَتْلِ الآبَاءِ وَالأَوْلادِ، وَالْمُنَاصَحَةِ فِي الدِّينِ، وَقُوَّةِ الإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، الْقَطْعَ عَلَى عَدَالَتِهِمْ، وَالاعْتِقَادَ لِنَزَاهَتِهِمْ، وَأَنَّهُمْ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الْمُعَدَّلِينَ، وَالْمُزَكَّيْنَ، الَّذِينَ يَجِيؤُنَ مِنْ بَعْدِهِمْ أَبَدَ الآبِدِينَ» (الكفاية، ص93-96).

يقول ابن تيمية، رحمه الله، معقبًا على قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح:18):

«والرِّضا من الله صفة قديمة، فلا يرضى إلا عن عبدٍ علمَ أنه يوافيه على موجبات الرضا -ومن رَضِيَ الله عنه لم يسخطْ عليه أبدًا- فكل من أخبر اللهُ عنه أنه رضي عنه فإنه من أهل الجنة، وإن كان رضاه عنه بعد إيمانه، وعمله الصالح، فإنه يذكر ذلك في معرض الثناء عليه والمدح له، فلو علم أنه يتعقب ذلك بما يسخط الرب لم يكن من أهل ذلك» (الصارم المسلول، ص574-575، طبعة المكتب الإسلامي).

ويقول ابن حزم، رحمه الله: «فمَن أخبرَنَا الله عز وجل أنه علم ما في قلوبهم، ورضي عنهم، وأنزل السكينة عليهم، فلا يحلُّ لأحدٍ التوقُّفُ في أمرهم، أو الشك فيهم البتة» (الفصل في الملل والنِّحَل، 148/4).

لذلك قال عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَأَسِّيًا فَلْيَتَأَسَّ بِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَبَرَّ هَذِهِ الأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، وَأَقْوَمَهَا هَدْيًا، وَأَحْسَنَهَا حَالاً؛ قَوْمًا اخْتَارَهُمُ اللَّهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ» (ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله).

ومن هنا، ندرك عِظَمَ المخاطرِ والآثارِ المترتبةِ على النيل من هذا الجيل، الذي يمثل قاعدة البناء، وأنموذج تنزيل الإسلام على الواقع، ومحل التأسي، والمرتكز الحضاري.

وليس ذلك بالنسبة لعصر، أو قوم، أو جيل، أو موضع، أو وضع اجتماعي، وإنما هم جيل التأسي الخالد، المجرد عن حدود الزمان والمكان، إنهم جيل التأسي العالمي والإنساني، لأنهم حَمَلَة رسالة عالمية إنسانية خالدة، ونماذج تطبيقها، وأوعية حَمْلِها ونَقْلِها، والقاعدة البشرية الأولى، التي قامت بها: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (الأنعام:124).

- بشرية الصحابة:

أما قضية العِصمة عن الخطأ، فالصحابة، رضوان الله عليه، لا عِصْمَة لهم، لأنهم بَشَرٌ يجري عليهم الخطأ والصواب، بكل ما في البشرية من أبعاد، وبكل ما فيها من نوازع، ودوافع، وغرائز، وخصائص، وتفاوت في أقدار التدين، وفوارق فردية في النظر والاجتهاد، لذلك فلن يتأتى لأحد أن يَدَّعي لبعضهم العِصْمَة في القول أو العمل، أو يمنحهم خصائص وصفات الملائكة، الذين جُبِلوا على الخير وحده، وسُلِبُوا حرية الاختيار بين الخير والشر، و لم يكن للشَرِّ سبيلاً إليهم.

لقد عَمِلَ بعض الصحابة، فأخطأ في حياة الرسول ﷺ فعاتبه القرآن، واجتهدوا فأصابوا وأخطأوا، ولا نزال نتخيَّر من آرائهم الفقهية الاجتهادية، في حالة اختلافهم، حيث إنهم لم يختلفوا في قضايا العقيدة في الغالب الأعم.

فكم من مرة تَخَلَّى أبو بكر، رضي الله عنه، عن رأيه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكم من مرةٍ تَخَلَّى عُمر، رضي الله عنه، عن رأيه، و«أصابت امرأة وأخطأ عُمَر».

وكم قال عثمان، رضي الله عنه: «لولا عَليٌّ لهلك عثمان»، حين أراد رجم، التي ولدت لستة أشهر.

ولو لم يكونوا بَشَرًا، لما استحقوا أن يكونوا محلاً للتأسي، وأنموذجًا يُحتذى لتنزيل الإسلام على الواقع، وتحقيق المعجزة الإسلامية من خلال عزمات البشر.. وقد نحتاج هنا إلى إعادة التذكير بقولة الإمام مالك، رحمه الله، إمام دار الهجرة، بأن: «كُل إنسان يؤخذ من كلامه ويُرَدُّ إلا صاحب هذا القَبْر»، يعني الرسول ﷺ، لأنه معصومٌ بالنبوةِ، مُسدَّدٌ بالوحي، ومؤيدٌ به، أما الصحابةُ فَبَشَرٌ يجري عليهم الخطأُ والصوابُ، عاشوا حياة البشر بكل ما فيها من أبعاد وحالات، حتى لنستطيع القول:

إن بشريتهم، وما نتج عنها من ممارسات واجتهادات وفوارق فردية، جاءت مستوعبة للحالات، التي تمر بها الأمة الخاتمة، حتى يَرِثَ الله الأرضَ ومَن عليها، ليشكل جيل هذا القرن، الذي وصف بالخيرية، المعيارية في موقع التأسي ومرجعية التطبيق.. اختلفوا واتفقوا، وتعارضوا وتوافقوا، ووصلت القناعات والاجتهادات في بعض الحالات مرحلة الاحتراب، بل احتربوا فعلاً، دفاعًا عما يعتقدونه من الحق.

لقد جمعت حياتهم أصول الحالات، التي تمر بها البشرية جميعًا والتي يمكن أن تعرض للمجتمعات البشرية، وكيفية التعامل معها، من خلال ما يؤمنون به من قيم، وشهد لهم الرسول ﷺ بالخيرية، لتشكل حياتُهم رؤية لكل السائرين على الطريق.

وقد يكون من المفيد أن نعرض لبعض النماذج، التي ترسم لنا خطًا بيانيًا، لكينونتهم البشرية، ولمستوى أقدار التدين، وطرائق الانفعال البشري بقيم الوحي.. لكن لابد أن ننبه ابتداءً إلى قضية أساسية، وهي أن الصحابة أَوَّابُون، تَوَّابُون، قد يقعون في الخطأ والضعف، وهذا شأن بشري، لكن سرعان ما يعودون إلى الحق ويلتزمونه.

- ميزة الرجوع إلى الصواب:

- عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنموذجاً:

فعندما تُوفِّيَ الرسولُ ﷺ، اشتدت الرَزِيَّةُ بموته، وعَظُمَ الخَطْبُ، وجَلَّ الأمرُ، وأصيب المسلمون بنبيهم، ولما سمع عمر ابن الخطاب، رضي الله عنه، بنبأ وفاته، أنكر ذلك، وقال: إنه لم يمت، وإنه سيعود كما عاد موسى لقومه، وقام يخطبُ الناسَ، ويتوعَّدُ من قال: مات، بالقتل والقطع، حتى خرجَ أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، ليقيم الأوَد، ويصدعَ بالحقِّ، ويردَّ الناسَ إلى رشدهم وصوابهم، وعُمَرُ يُكلِّمُ الناسَ، فقال له أبو بكرٍ: اجلس يا عمر! فأبى عُمَرُ أن يجلسَ، فَتَشَهَّد أبو بكرٍ، فأقبل الناسُ عليه، فقال: «أَمَّا بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ، فَإِنَّ اللَّهَ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حَيٌّ لا يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (آل عمران:144).

يقول ابن عباس، رضي الله عنهما: «وَاللَّهِ، لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى تَلاهَا أَبُو بَكْرٍ فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ، فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إلا يَتْلُوهَا».

ويقول ابن المسيب: قال عمر: «وَاللَّهِ مَا هُوَ إلا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلاهَا فَعَقِرْتُ -أي دهشتُ- حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلايَ وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلاهَا، عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ مَاتَ» (أخرجه البخاري، كتاب المغازي).

ومن الأهمية بمكان أن نؤكد أن لكل نموذج من الصحابة الكرام خصائصه وميزاته، التي تُشكل بمجموعها تكامل جيل القدوة، فسيدنا عمر بن الخطاب ﷺ الخليفة الراشد، يعتبر أنموذجاً في فقهه وفهمه وإدارته وعدله في الأمة، فهو يمتلك من الخصائص والمؤهلات ما رفعه إلى مقام استحقاق النبوة، يقول الرسول ﷺ عنه: «**لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ**» (أخرجه الحاكم في المستدرك).

فسيدنا عمر ﷺ يُعتبر من المعالم الرئيسة المطلوب استدعاؤها على طريق إعادة البناء الثقافي وتحقيق الوعي الحضاري، ومعاودة إخراج الأمة المسلمة، واسترداد دورها العالمي، فهو القوي الأمين، حيث التقت العبقرية بقيم الوحي وتربية النبوة، عبقرية الفقيه في الدراية وعبقرية القائد في الإدارة، الذي اجتمعت فيه القوة، من حيث الخبرة ورجاحة الرأي وملكة الاجتهاد، مع عظيم الأمانة، التي هي ثمرة الإيمان؛ الإيمان الذي كان -فيما يروى عنه- يخيف الشيطان: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَخَافُ مِنْك يَا عُمَرُ**» (أخرجه الترمذي)؛ وكانت خلافته ولا تزال أنموذجاً لحل المعادلة الصعبة بين الأخلاق والسياسة.

ولقد كانت قولة المؤرخين قولة تاريخية محقة عندما قالوا: «رحم الله عمر، إنه اتعب من جاء بعده».

واجتهد سيفُ اللهِ خالدُ بن الوليد، رضي الله عنه، وعمل فأخطأ، فتبرأ الرسولُ ﷺ من عمله.

فعن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: بعثَ النبيُّ ﷺ خالدَ بن الوليد إلى بَني جَذيمَة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يُحسنوا أن يقولوا: أَسْلَمْنَا، فجعلوا يقولون: صَبَأْنَا، صَبَأْنَا، فجعلَ خالد يقتُلُ منهم ويَأْسِر، ودَفَعَ إلى كلِّ واحدٍ منا أسيرَهُ، حَتَّى إذا كان يومٌ، أمر خالدٌ أن يقْتَلَ كُلُّ رجلٍ منَّا أسيرَهُ، فقلتُ: واللهِ لا أقتلُ أسيري، ولا يقتلُ رجلٌ من أصحابي أسيرَهُ، حتى قَدِمْنَا على النبي ﷺ فذكرناه، فَرَفَعَ النبي ﷺ يديه، فقال: «**اللهمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إليكَ مما صَنَعَ خالد**» مرتين (أخرجه البخاري).

- الرسول ﷺ يسدد اجتهاد الصحابة:

ولا نزال نذكر موقف عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في صُلح الحُديبية، الذي بناه على اجتهاده في

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رؤية النتائج القريبة، وغَابَتْ عنه العواقبُ والمآلات، عندما قال للرسول ﷺ مستنكرًا: أَلَسْتَ نَبِيَّ الله حقًّا؟ ألسنا على الحقِّ وعَدُوُّنا على الباطلِ؟ فَلِمَ نُعطِي الدَّنِيَّةَ في ديننا؟ (أخرجه البخاري)، ثم لما تبيَّن له الحقُّ، بقي يتوبُ ويعتذر إلى الله بقية حياتِهِ، من مَوْقِفِهِ يومَ الحُدَيْبية، الذي أسماه الله الفتح المبين، يقول عمر، رضي الله عنه: «مازلتُ أصومُ وأُصَلِّي وأتصدَّقُ وأَعْتِقُ مِنَ الذي صنعتُ، مخافةَ كلامي، الذي تَكَلَّمْتُ به يومئذ، حتى رجوتُ أن يكون خيرًا» (أخرجه أحمد).

والنماذج كثيرة، ويصعبُ استقصاؤها، والآيات الخالدة في القرآن تقرر ذلك وتحكيه، ليكون وسيلة إيضاح، ودليل عمل على الزمن الممتد.

لذلك أرى أن الذين يعتقدون أن نزع الصفة البشرية بكل أبعادها عن جيل الصحابة، ظنًا منهم أن هذا نوع من التقدير والتعظيم والإجلال، ويدَّعون لهم العصمة عن الخطأ، إنما يساهمون مساهمة سلبية في القطيعة المعرفية والسلوكية والتربوية، والمحاصرة لامتداد التأسي بهذا الجيل.. إنهم يحنطون الإسلام، ويطفئون شُعلتَهُ، ويميتون فاعليته، ويلغون خلوده وامتداده، ويدخلون به إلى المتاحف والمعارض، بدل المساهمة في تفعيله، وتقديم النماذج، التي تثير الاقتداء، وتدلل على إمكانية التنزيل للقيم على الواقع، وتبين أن رسالة الإسلام واقعية، تتعامل مع الناس من خلال الحالات التي هم عليها، وترتقي بهم، وليست خياليةً أو مثاليةً، عَصِيَّةً عن التطبيق.

ولا أدري، كيف يمكن أن يشكل محلاً لتأسي البشر، الذي يجري عليه الخطأ والزلل والصواب، مَن هو معصوم، خارج عن طبيعة البشر، وضعف البشر، وخصائص البشر؟!

إن عِظَم الصحابة وقدرهم، ببشريتهم.. وإن عظمةَ الإسلامِ، ومعجزة الإسلام (عظمة الرسالة والرسول ﷺ)، بقدرته على هذا الإنتاج، وعلى صناعة هذه النماذج، التي استطاعت أن تُجسِّد التعاليم الإسلامية في الأرض، وتتحرك بها، من خلال خصائصها وصفاتها كبشر، له غرائزه وأشواقه.. وقدَّم الإسلامُ الدليل على أن معجزته الحقيقية، أنه تحقق من خلال عزمات البشر، وأن الخلود، من بعض الوجوه: هو في وجود هذه الإمكانية، والقدرة على الإنتاج في كل زمان ومكان، طالما أن القيم موجودة في الكتاب والسنة، والأنموذج التطبيقي موجود في السيرة، لأن السيرة في نهاية المطاف، هي حركة جيل الصحابة، وإنجازه بقيادة النبوة.

- جيل استدعاء الوحي:

وهُنا قضية أعتقد أنه من المفيد التوقف عندها قليلاً، أو على الأقل إثارتها وفتح ملفها، لعله يُغْرِي مستقبلاً بعض القادرين أو الباحثين بالمتابعة، وهي أن جيل الصحابة، رضي الله عنهم، هم لَبِنَاتُ البناء، ووسائلُ الاكتمال للدين، والوصولُ به إلى مرحلة الكمال، حيث انتهت إليهم حياة الأنبياء، وأصحاب النبوات، وصُنِعَتْ بهم الصورةُ الأخيرةُ والخاتمة للنبوة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كانوا هم محل التلقِّي لآيات الكتاب، وميدان الفعل والتجريب، ووسائل إيضاح للتطبيق.. حياتهم وتصرفاتهم هي أسباب النزول للآيات، وأسباب الورود للأحاديث، لذلك نرى أن الكثير من الآيات والأحاديث جاءت بيانًا لخصائصهم، وتصويبًا أو إقرارًا لممارساتهم، واستنزالاً واستدعاءً لبعض الأحكام الشرعية، يقول عمر بن الخطاب، ومعاذ بن جبل، رضي الله عنهما: «اللهُمَّ بَيِّن لَنَا فِي الخَمْرِ بيانًا شافيًا، فإنها مفسدةٌ للعقلِ، مضيعةٌ للمال» (أخرجه أحمد).

هم حلقة الاتصال بين الفكر والفعل، بين المبادئ والبرامج، بين التكاليف الإلهية والفعل البشري، ولعلنا نقول: إن آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ، سجلاً لحياتهم، وتقويمًا لمسالكهم، وإرشادًا لوجهتهم، ليكون أنموذج الفعل، وسبيل الاقتداء، وميدان التطبيق.. ولا شك عندي أن الأمر في البداية أو النهاية واقع في علم الله، وأن الله أعلم حيثُ يجعلُ رسالَتَهُ، ومَنْ هم المؤهلون ليكونوا قاعدة الرسالة الأولى، وامتلاك الخصائص والصفات، التي تمكنهم من الامتداد بها ونقلها، وأن أي محاولة للتشكيك في عدالتهم، وهدم مرحلة خير القرون، تعني تطرق الشك إلى الرسالة، وأوعية نقلها، والحط من قَدْر الرسول المُرَبِّي ﷺ.

وبإمكاننا القول: إنهم الجيل الذي استدعى الوحي بحركته، وتحقَّقَ لهم الانفعالُ به، والتحركُ وِفْقَ مَقَاصِدِهِ.

إنهم الجيلُ، الذي يُمَثِّلُ أَجنَّةَ الدعوةِ الأولى، وشَبَابَهَا، ورِجَالَهَا، وَدَعْوَتَهَا، وَدَوْلَتَهَا، وفَرْدَهَا، ومُجْتَمَعَها، جعلَ اللهُ نَصْرَهُم لها موازيًا لتأييدِهِ ونصره، فقال تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الأنفال:62)؛ لأنهم في المحصلة النهائية، أوعيةُ نصرِ اللهِ ووسائلُ تحقيقه.

فاللهُ أَيَّدَ الرسولَ بنصرِهِ، كما أَيَّدَهُ بهداية الصحابة إلى الإيمان بالله ورسوله، الأمر الذي دفعهم للجهاد وتحقيق نصر الله، من خلال حركة البشر المؤمنين.. فأي جيل أكرم من هذا الجيل؟ إنه جيلُ الخلودِ، لأنه جسد الرسالة الخاتمة الخالدة.. وجيلُ الاكتمال، لأنه بهم اكتمل التشريعُ.. وجيلُ الكمالِ، لأنهم اللَّبِنَاتُ التي اكتملَ بها بناءُ النُّبوة التاريخي.

لكن المشكلة كل المشكلة، قد تكون فيما نعانيه -منذ توقف العقل والاجتهاد والامتداد المعرفي -من الارتهان الثقافي، والاستلاب الحضاري، والانشطار التربوي، فنكتب عن جيل الصحابة بشكل عام، أو عن أحد الأصحاب، أو أية دراسة أخرى، بأدوات وأنظمة معرفية ليست من إبداعنا، ولا من امتدادنا المعرفي، وليست منطلقة من قِيَمِنَا.

فالكثيرُ منا يكتبُ وهو مطبوع بثقافة فصل الدين عن الحياة، التي شكلت المناخَ الثقافي لأمتنا خلال

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حقبة من الزمن، الأمر الذي يتطلب الكثير من الجهد للانعتاق منه.. فإذا جاءَ أَحَدُنا يتكلَّمُ عن خصائص وصفات بعض الصحابة وعبادتهم وإيمانهم، أحسنَ الكتابةَ، لكن إذا طوى هذه الصفحةَ، التي تخص التدين -بالمفهوم العلماني- وتحوَّل للكلام عن ممارساتهم السياسية، رسم لهم صورة كاريكاتورية من المكر والكذب والخداع والغش ونقض العهود، قد لا تليق حتى بالإنسان العادي!

ذلك أن المشكلة -فيما نرى- هي في المنهج، الذي يرهننا، ويمزِّق رؤيتَنَا، ويُعَلْمِن تفكيرَنَا، فنقع في مقاصده وأدواته، حتى ولو حاولنا في كثير من الأحيان رفع شعار مناقضته، والتنكر له.

أما بعض الباحثين، وتلامذتهم في الداخل الإسلامي، الذين تخصصوا بالنقاط السود في تاريخنا، وعلى الأخص عصر الصحابة، فلم يبصروا إلا ما تخصَّصُوا به، وما تهوى أنفسهم، وحاولوا توهين هذا الجيل، والحطّ من قَدْرِهِ وأدائه، والادعاء بأنه جيل الفتن، والاغتيالات، والحروب، والاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي، فمقاصدهم قطع الأمة عن جذورها، وتشويه شخصيتها التاريخية، وتركها في مَهَبِّ الرياح! فالغاية من طروحاتهم لم تعد خافية على أحد.

ومن هنا نُدرك الأبعاد الحقيقية لنهي الرسول ﷺ عن سَبِّ الصحابة بقوله: «**لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي...**» (أخرجه البخاري)؛ «**لا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي...**» (أخرجه مسلم).

ونُدرك مخاطر مَن فهموا من ذلك العصمة لهم عن الخطأ، ورفعهم فوق مستوى البشر.. وندرك الخلط الحاصل عند مَنْ فَهِمُوا أن البحثَ في اجتهاد الصحابة، وترجيحَ بعض الاجتهادات، وردّ الأخرى، هو من السبِّ المنهي عنه.. فكيف يكون ذلك، وقد خطَّأ بعضهم بعضًا، وخطَّأ بعضُهم نفسه، وتراجع عن اجتهاده؟!

لذلك نقول: إن المشكلة في استخدام مناهج (الآخر) بالدرجة الأولى، وغياب النظام المعرفي، الذي يأتي ثمرة للقيم والمبادئ الإسلامية.

وهنا أمر لابد من إيضاحه، وهو أننا بالإمكان أن نمتد بالرؤية الإسلامية، ونعدِّيها إلى آفاق واجتهادات بحسب ظروف الزمان والمكان، لكن لا يجوز بحال من الأحوال أن تلغي هذه الاجتهادات، أو تَنْتَقِصَ ما اجتهده عمومُ الصحابة، لأنهم جيل المرجعية للفهم والتنزيل، كما أن القرآن والسنة هما محل المصدرية لتشريعات وأحكام هذا الدين.

- جيل الشهود الحضاري:

ومن نعمة الله على هذه الأمة المسلمة -ولعل ذلك من ملامح وخصائص الخلود والخاتمية- أن جعل لها من جيل الصحابة، جيلَ خير القرون، وأن الرسول ﷺ شهد له بأنه الجيل المعيار، ليكونوا جيل الشهادة على الناس، كما كان الرسولُ ﷺ شهيدًا عليهم، يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾ (البقرة:143)، ويقول: ﴿وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

﴿ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ...﴾ (الحج:78).

لذلك نهى ﷺ عن سَبِّهم، والنيل منهم، لتبقى خصائصُهم وصفاتُهم واجتهاداتهم، معالم هادية على الطريق الطويل لمسيرة الدعوة الإسلامية، وحركة الأمة الإسلامية، ويبقى فهمهم للتنزيل متميزًا، بسبب معاصرتهم له، وكونهم مادته وأدوات فعله وتنفيذه، وأوعية حِفْظِهِ ونَقْلِهِ، يقول عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه: «والذي لا إله غيرُهُ، ما نَزَلَتْ آيةٌ مِنْ كتابِ الله، إلا وأنا أعلمُ فِيمَن نَزَلَتْ، وأينَ نَزَلَتْ» (أخرجه البخاري، وابن جرير الطبري في تفسيره واللفظ له).

إنهم جيل الخيرية، وحياتهم معالم مضيئة في بناء المرجعية والفهم والتنزيل على الواقع، حتى يُحْمَى الجانبُ التطبيقي للقيم من الاجتهادات المعوجة، والانتحالات الباطلة، والتحريفات الجاهلة، والغلو في الدين، وحتى تكون ترجماتُهم وسِيَرُهم المنجم التربوي والمَعِينُ، الذي لا يَنْضُبُ لمناهجِ وسُبُلِ الارتقاء بالنشء إلى تحقيق مقاصد الدين، والتَحَلِّي بخصائص الخيرية والصعود نحو الكمال.

إن هذا الجيل يبقى هو القاعدةُ الصلبةُ للبناءِ المأمولِ، والأنموذجُ المُحْتَذَى للتطبيقِ السليم، والمُرْتَكَزُ الحَضَاري للانطلاقِ الصحيح، والدليلُ العَمَلي لتحويلِ القيمِ إلى سلوكٍ وواقعٍ، والوسيلةُ المُعِينَةُ لكيفيةِ التعاملِ مَعَ قيمِ الدينِ في الكتابِ والسنةِ من قِبَل البشرِ بكُلِّ ما يمرُ به من أقدارِ التدين: صُعُودًا وهبوطًا، ذُنُوبًا وتوبة، ضَعْفًا وقوة، تَقَهْقُرًا وسُمُوًا، اتباعًا واجتهادًا.

- جيل التكامل المعرفي:

وفي هذه المرحلة الحرجة من حياة الأمة، أو في هذه الأزمنة الرديئة، إن صح التعبير -وقد وَصَف الله بعض الأيام بأنها نَحِسَات بسبب ما يقع فيها- والتي تجتاحنا فيها ثقافات السموم، والإفساد في الأرض، تحاول اقتلاعنا من جذورنا، وتوهين قِيَمِنا، والتشكيك بثوابتنا، والنيل من تاريخنا، وتجريح حِقبة الخيرية والمرجعية في مسيرتنا، يشتد اشتياقنا لطي مسافة الزمان والمكان، وتجاوز فترات العجز والتخاذل والوهن.

تشتد حاجتنا إلى تجديدِ العزيمةِ على الرشد، والانعتاقِ من مرحلةِ (القَصْعَة)، حيث تتداعى علينا الأُممُ، كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِها، في محاولة للوصولِ إلى الينابيعِ الأولى في الكتاب والسنة، وأوعية الاغتراف منها، من جيل الصحابة، وأدلة التعامل معها، من سيرة أهل خير القرون.

في هذه الظروف الحرجة، يشتد اشتياقنا إلى اتِّباع أبي بكرٍ، رضي الله عنه: «إِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ، وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ»، وإلى اجتهاد عمر، رضي الله عنه، وإلى إيمان وحياء عثمان، وإلى حِكْمة علي، وإلى فقه ابن عباس، وابن مسعود، وإلى زهدِ أبي ذَرٍّ وانعتَاقِه من الجاهلية، وإلى ثبات عبد الله بن الزبير، وإلى حِنْكَة عمرو بن العاص، ومَشورة أم سلمة، وإدراك أم المؤمنين خديجة لأبعاد النبوة، وطمأنة الرسول ﷺ بأنَّ الله لن يخزيه أبدًا، وإلى شجاعة عائشة، وتَوبة ماعز، وموقف السَّعْدَيْن، وذكاء نعيم بن مسعود في غزوة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأحزاب، وقدرته في التعامل مع سنن المدافعة، وتوظيف التناقض، وتحقيق النصر على الأحزاب، رضي الله عنهم، وإلى سياسة عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، الذي عاد بالأمة إلى مسيرة وممارسة الخلافة الراشدة، ونحدد ملامح هذا التكامل في حديث الصادق المصدوق ﷺ:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ ابْنُ ثَابِتٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ**» (الترمذي).

تشتد حاجتنا، في هذه الأيام، إلى إعادة بناء القاعدة الصلبة للتخلص من الهشاشة والرخاوة، وإعادة بناء المرجعية للتخلص من الضياع والضلال الثقافي، وتشتد حاجتنا أكثر فأكثر إلى الاقتداء والتأسي؛ لأن التأسي بهذا الجيل، يعني اكتشاف سبيل التربية والمنهج وعلم الطريق، الذي يحقق لنا الانتشال من الحال، التي صرنا إليها، ويمكننا من التجاوز، ويحصننا من الإصابات، ويمنحنا قدرات إضافية للتحمل والثبات على الحق، ويقدم لنا رؤىً متنوعة ومتكاملة تمكننا من التعامل مع الواقع، والانسجام مع السنن، ومدافعة قَدَرٍ بقَدَرٍ، والعودة إلى الجادة والسبيل القويم على بصيرة وهدى.

فكيف السبيل اليوم إلى استشراف آفاق الماضي، وخاصة مرحلة خير القرون، التي شهد الرسول ﷺ لها بالخيرية، وأقامه الله شهيدًا عليها لتصبح هي شاهدة على الناس، تصوِّب مسارهم، وتُقَوِّم سلوكَهم بقيم الكتاب والسنة؟

كيف السبيل إلى بناء جيل يتحقق بالمرجعية من فهم خير القرون، التي تمكنه من العبور إلى المستقبل بخطوات ثابتة، يأمن معها اغتيال الشياطين، والتضليل الثقافي، وتحصنه دون انتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، وتحقق خلود هذا الدين، وقدرته على إنتاج النماذج الإسلامية، التي تتمثل قيم الإسلام في حياتها، مقتدية بالرسول ﷺ، ومتأسية برجال خير القرون، ومساهِمة بإظهار الإسلام على الدين كله؟

- جيل إظهار الدين:

وقد يكون من المفيد، في هذه الرسالة الموجزة، أن نتابع التأمل في جوانب من أبعاد خيرية جيل الصحابة، السابقين الأولين، الذين أظهر الله بهم هذا الدين، وامتدوا به في الآفاق، متابعة للرسالة، وحملاً للأمانة، حيث أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره الكافرون، وأمدَّ الأمة المسلمة عبر التاريخ، وزوَّدَها بعوامل الظهور ومقومات الإظهار لهذا الدين.

فهي الأمة، التي امتازت عن غيرها من سائر الأمم، أنها تمتلك النص الإلهي السليم، أو خطاب الله للبشر، المتناسب مع فطرتهم، القادر على إنتاج النماذج، التي تتمثله في حياتها، في كل زمان ومكان.. وهي الأمة التي تمتلك الفترة التطبيقية المشهود لها بالرضى والخيرية، سواء على مستوى الجماعة، أو على

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مستوى الأفراد، الذين آمنوا بهذا الدين وما يزالون يقبلون عليه، من مختلف الشرائح الاجتماعية والسويات الحضارية.

فعلى المستوى الفردي، نجد اليوم الإقبال على اعتناق الإسلام متحققًا في أرقى المجتمعات البشرية، وأكثرها مدنية في أوروبا وأمريكا، كما نجد الإقبال عليه مستمرًا في أدغال إفريقية، وأكثر المجتمعات بداوة وبدائية، إضافة إلى عودة الوعي به، وتجديد العزيمة على الرشد في مجتمعات المسلمين، وتقديم نماذج من أعلى التضحيات وأغلاها في سبيله، وإحياء موات الأمة في عالمنا الإسلامي، بعد أن سقطت كل الشعارات، التي حاول أصحابها أن تحقق الظهور، وأن تكون البديل الملائم.

أما على مستوى المجتمعات، فلا تزال طوائف من أبناء الإسلام قائمة على الحق، ممتدة به، مضحية في سبيله، لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله وهي على ذلك.

ولئن جاز لي أن أتوقف قليلاً عند ملمح بسيط بين مدلول كلمتي (الإظهار) و(الظهور)، لقلتُ: بأن (الظهور) للدين الذي أشار له القرآن: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ (الصف:9)، أصبح متحققًا، ذلك أن الإسلام الذي مضى عليه أكثر من أربعة عشر قرنًا، ما يزال مطروحًا وله الحضور الكامل على مختلف الأصعدة، الحضارية والثقافية والسياسية والدينية، لم يستطع أحد مهما قوي جبروته، وتصاعدت عداوته، أن يقف في وجهه أو يغيِّبه.. فالإسلام يندفع ويتقدم بقوته الذاتية، وفطرية مبادئه، وتحقيقه لإنسانية الإنسان، يتقدم صوب الإنسان، أينما كان، ويتقدم الإنسان أيضًا باتجاه الإسلام، كرجاء وسبيل خلاص، من خلال معاناته وأزماته وإشكالياته، التي أورثتها الحضارة المعاصرة.

ولعل ثورة المعلومات والاتصالات، التي اختزلت الزمان والمكان، أو ما يمكن أن أسميه: «حقبة امتداد الحواس»، وامتلاكها طاقات إضافية هائلة، حققتها ثورة التكنولوجيا، حتى أصبح الإنسان يرى آخر الدنيا وهو في مكانه، ويسمع أصوات أقاصيها وهو في مكانه، نقول: لعل ثورة الاتصالات، وطي المسافات، بقدر ما حملت لنا من المخاطر والنفايات الثقافية والحضارية، بقدر ما أتاحت لنا آفاقًا ومجالات لامتداد الإسلام وحضوره وظهوره، إما بعز عزيز أو بذل ذليل، مصداقًا لحديث الرسول ﷺ: **«لَيَبْلُغَنَّ هذا الأَمرُ مَا بَلَغَ الليلُ والنهارُ، ولا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أَدْخَلَهُ اللهُ هذا الدين بِعِزِّ عَزِيزٍ، أو بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًا يُعِزُّ اللهُ بهِ الإسلام، وَذُلاً يُذِلُّ بِهِ الكُفْرَ»** (أخرجه الجماعة).

إن هذا الظهور وهذا الحضور وهذا الشهود -إن صح التعبير- أصبح أمرًا قائمًا، على الرغم من حالات العجز والتخاذل والتخلف، الذي يعيشه عالم المسلمين، ويحول دون امتلاك المقومات والقدرة على إظهار الإسلام.. فالظهور يعني النمو والامتداد الذاتي، بما يمتلك من عوامل ذاتية، على الرغم من العجز،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الذي يعيشه العالم الإسلامي على الإظهار.

ولعل هذا الأمر، أمر ظهور الإسلام وتوجهه العالمي، انطلق وتحقق بعد معركة الفرقان ونصر بدر، التي قادها جيل الصحابة، جيل الفوز بالسبق والريادة والنصيحة، وقال عنها الرسولﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**» (أخرجه مسلم)، ولذلك كان للبدريين من الصحابة من الثواب والأجر والمغفرة، ما ليس لغيرهم: «**لَعَلَّ اللهَ قد اطَّلَعَ على أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**» (متفق عليه)؛ لأن أمر الإسلام بعد بدر قد توجه، وظهوره قد تحقق بعد أن أظهره البدريون، بتوفيق الله ونصره، ويئس الذين كفروا من إطفاء نور الإسلام، وعجزوا عن الحيلولة دون ظهوره، على الرغم من كرههم له: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (التوبة:32)؛ ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾وَٱخْشَوْنِ (المائدة:3).

وبالإمكان القول: إن جيل الصحابة، رضي الله عنهم، هم الذين أظهروا الإسلام، وامتدوا به في الاتجاه الإنساني والعالمي، وتجاوزوا في إظهاره الجغرافيا والتاريخ، والجنس واللون، والأرض واللغة، والمناخ والبيئة، انطلقوا به إلى الرحابة العالمية، فكانوا نماذجه التطبيقية، التي تثير الاقتداء، في المواقع كلها، والظروف كلها، والحالات الثقافية والبشرية كلها.

لقد كانوا نماذج عالمية إنسانية، امتدوا بالإسلام في كل الاتجاهات، وعلى مختلف الأصعدة.. استوعبوا كل الثقافات والحضارات والأديان، واستطاعوا الإنتاج والبناء الإسلامي في كل المواقع، مما يؤكد عالمية الإسلام، وإنسانية الإسلام، حتى إن الحضارة الإسلامية في مصبها الأخير، كانت مُشْتَرَكًا إنسانيًا متشابكًا، يصعب معه فرز ألوانها أو عناصرها أو أجناسها.. هي إسلامية القيم والمنطلقات، عالمية العطاء البشري.

بينما نرى الحضارات، التي ظهرت على مسرح التاريخ البشري، سواء السائد منها والبائد، كانت حضارات خاصة بقوم، أو جنس، أو جغرافيا، ولم ترتقِ إلى مستوى المشترك الإنساني.. فهي إما: حضارة يونانية، أو رومانية، أو فرعونية، أو فينيقية، أو فارسية، أو أوربية...الخ، على عكس الحضارة الإسلامية، التي هي في مبادئها وممارساتها حضارة إنسانية، تحقق فيها ولها المشترك العالمي، الأمر الذي يصعب معه وصمها بالعنصرية، أو الإقليمية، أو العرقية...الخ.

- جيل الارتكاز الحضاري:

إن جيل الصحابة، الذي كان له فضل السبق في إظهار الإسلام، ومن ثم ظهوره وامتداده، ليس خاصًا بأمة، أو جنس بشري، أو جماعة، أو بيئة، أو تاريخ.. إنهم نماذج عالمية الأداء، إنسانية العطاء، بما تحمل من قيم الإسلام العالمية والإنسانية، لذلك لا يقتصر التأسي بهم، وتلمس جوانب العظمة -فيما نرى- على الأمة المسلمة، أو معايرة العظمة في إطارها، لأن ذلك مجافاة للحقيقة، وبخس للأشياء، ومحاصرة لإظهار الدين، ونماذج ظهوره اليوم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ذلك أن جيل الصحابة، رضوان الله عليهم، بما تحقق لهم من الخصائص والصفات، وما تمثل على أرض الواقع لهذه الصفات، يشكلون نماذج الاقتداء والإشعاع، والارتكاز الحضاري، على المستوى العالمي.

ونستطيع القول: إن الفائدة من جيل الصحابة لم تتحقق بالأقدار المطلوبة، وأن الانحياز لهذا الجيل المرضي عنه من الله سبحانه وتعالى، والمشهود له بالخيرية من الرسول ﷺ، إنما جاء في معظمه عاطفيًا، تتحكم به عقدة الافتخار بالماضي، لمواجهة مركب النقص أمام الاستلاب الحضاري والثقافي، والعجز عن الإنتاج.. أو بمعنى آخر، جاء هذا الانحياز لتحقيق الحماية دون التنمية، لذلك فهو أقرب لثقافة الاستهلاك منه لثقافة الإنتاج، ولذلك لم يسهم بتغيير الحال الإسلامي، إلى درجة يمكن أن نقول معها:

إن جيل الصحابة لم يأخذ البُعْد المطلوب، من ثقافة المسلمين وتربيتهم، ولم تنعكس خصائصهم وصفاتهم، التي كانت سبب خيريتهم والرضى عنهم، على مناهج التعليم، والإعلام، والثقافة، والتربية، لتحقيق التأسي المطلوب، وصناعة الثقافة والتربية للأمة، وإنما اتجهت الخطب والكتابات والدروس والوعظ والإرشاد، إلى الفخر بهذا الجيل -وهو مما يُفتخر به لا شك- والتعاظم بإنجازاته، دون القدرة على استنباط الأسس، والقواعد، والمناهج، وجوانب العظمة، وكيفيات بنائها في الجيل المسلم.

وعلى أحسن الأحوال، كانت الكتابات والدراسات الإسلامية لهذا الجيل، يغلب عليها الطابع والمنهج التسجيلي، التصويري، التفسيري، لا الطابع والمنهج التحليلي، الذي يستطيع تجريد معاني الخلود، وتخليصها من قيود الزمان والمكان، والأشخاص، والامتداد بها، لتمثل روائز ومنطلقات تربوية وثقافية للجيل في كل زمان ومكان.

هذا من وجه، ومن الوجه الآخر، جنحت معظم الكتابات الإسلامية حول التعامل مع هذا الجيل، على أنه نماذج اقتداء على المستوى الإسلامي أو العربي، دون الالتفات إلى البعد الحقيقي، إلى الوظيفة المهمة والأساسية، وهي أن هذا الجيل يشكل نماذج عالمية وإنسانية، سواء فيما تمثل من قيم، أو بما قدَّم من عطاء.

فعظمة هذا الجيل ليست على المستوى العربي الإسلامي، وإنما هي أيضًا على المستوى الإنساني العالمي، فهم وَرَثَةُ النبوة، وهم حَمَلَةُ الرحمة للعالمين.

هم حملة الرسالة العالمية الخالدة، وقاعدتها البشرية الأولى، ونماذجها التطبيقية، التي تشكل تراثًا إنسانيًا ومراكز إشعاع عالمي.

لذلك نرى كثيرًا من تلك الكتابات، التي حاصرت نفسها بظرف الزمان والمكان، وتحدثت عن جيل الصحابة وعظمته وتألقه في إطار الزمان، الذي عاشوا فيه، عجزت عن الامتداد بجوانب العظمة وخصائص البطولة، وأسباب التألق، لتكون منارات هادية للأجيال في كل زمان ومكان، يمكن أن تقترب منها، فهي في عمومها اقتصرت على الافتخار بتلك العظمة، دون القدرة على استكناه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الخصائص والصفات، التي جعلت منه خير القرون، ومن ثمّ كيفية تنزيلها على واقع الناس من خلال مؤسسات التربية والثقافة والإعلام، اللهم إلا ما كان من دراسات انتقائية، وقراءات مغلوطة، جاءت من الخارج الإسلامي، أغرقت الساحة الفكرية بأهداف وأفكار وأيديولوجيات وفلسفات دخيلة وغريبة عن طبيعة عقيدة الأمة ومعادلتها الاجتماعية.. أرادت أن توجد لها التغطية التراثية أو المشروعية من التراث، وعلى الأخص من فترة جيل القدوة والتأسي، للتسلل إلى الداخل الإسلامي، متجاوزة أسوار الغربة، ومخترقة التحصينات الفكرية الإسلامية.

- قراءات خاطئة:

وبالإمكان القول: إن هذا الجيل، الذي تربى على عين النبوة، أو هذا التراث، قُرئ تارة بأبجدية رأسمالية، وأخرى بأبجدية ماركسية، وثالثة بأبجدية علمانية، وأخرى بأبجدية باطنية، ويكفي أن نقول: إن ما سمي في فترة من الفترات باليسار الإسلامي، وأفرز بعض المؤلفات، التي تسللت إلى المكتبة الإسلامية ووجدت مكانًا لها بسبب الفراغ، حاول ممارسة الانتقاء والإسقاط ليجد لنفسه موطن قدم، ولأفكاره بعض المشروعية، سقط هذا جميعه، على الرغم مما ترك من بعض الضحايا والإصابات؛ لأن هذا الجيل المشهود له بالخيرية، هو أنموذج هذا الدين التطبيقي، الذي يتجدد باستمرار، ويستأصل نوابت السوء وأنماط الفهوم المعوجة، وينفي عن نفسه الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد.

وقد لا نحتاج إلى ذكر الأمثلة من الكتابات، التي قسمت الصحابة إلى يسار ويمين، وذكرت قائمة من الصحابة (اليساريين)، وأخرى من الصحابة (اليمينيين)، وحاولت تفسير تاريخ الصحابة من خلال فلسفة الأنظمة، التي انطلقت منها، وانحدرت إلينا، الأمر الذي يمكننا من القول: إن فتاوى السلطان، وتطويع النصوص، والانتقاء والإسقاط، لم يقتصر على الفتاوى الفقهية، وإنما تجاوز إلى الطروحات الثقافية أو الفتاوى الثقافية -إن صح التعبير- وهي الأخطر، لأنها تصنع القابليات، وتشكل العقول، وتضلل الآراء.

وتبقى القراءات المطلوبة والغائبة، هي القراءات والمراجعات من خلال ميزان الكتاب والسنة، في تحديد الخطأ والصواب، والضعف والقوة، في واقع التدين؛ لأن الله الذي اصطفى هذا الجيل، وأورثه النبوة والكتاب، أخبر عن الفوارق الفردية في التدين، فقال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (فاطر:32).

إنها حالات بشرية دائمة ومتكررة، أو لازمة باستمرار، لتكامل الحياة وتماسك شبكة العلاقات الاجتماعية، ولو لم يكن ذلك كذلك لما تحقق لجيل الصحابة موقع القدوة، ومرتكز التأسي.

أما دراسة هذه الحقبة بروح عدوانية حاقدة، والضغط على مواطن الخلاف والتضخيم لها، والتقاط بعض

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الجزئيات وتعميقها، ومحاولة رؤية هذا الجيل من خلالها، وتصوير هذا الجيل المشهود له بالخيرية، على أن حياته كيد وتآمر، ومكر، وحرب، واغتيالات، واستئثار بالحكم والرأي، وتصفية الخصوم، والتقاط الروايات الضعيفة والهالكة والساقطة، ومحاولة تجاوز البشرية وطبائعها، إلى الملائكية، والمعايرة بها، لنقض الأساس الذي تقوم عليه المرجعية الإسلامية، والنيل من جيل خير القرون، وإيجاد الحواجز النفسية بين الأجيال المتعاقبة وميراثها المرجعي، وإبراز عناصر التألق والإنجازات (الديمقراطية) و(الإنسانية) في الحضارات والثقافات الأخرى، لاغتيال الجيل المسلم واستلابه، فحديثه يطول!!

- عمرو بن العاص ﷺ أنموذجاً:

ومن النماذج، التي تعرضت أكثر فأكثر للاستهداف والهدم، من الباطنية، بروح عدوانية حاقدة سيدنا عمرو بن العاص، رضي الله عنه، الذي شهد له الرسول ﷺ وقال فيه: «**أَسْلَمَ النَّاسُ وَآمَنَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ**» (أخرجه الترمذي).

كان عمرو بن العاص ﷺ جاهليًا تعامل مع الجاهلية، لكنه تحول إلى الإسلام، على بصيرة واختيار، فَجَبَّ الإسلامُ ما قبله، وبدأ إنسانًا آخر، و«**خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقُهُوا**» (أخرجه البخاري).

كان قائدًا فاتحًا ينشر الإسلام ويبشر به، ويحسن سياسة أهل البلاد المفتوحة، وكيفيات التعامل معهم، وحسبه أنه أَصَّلَ للحضارة والثقافة الإسلامية في مصر الفرعونية، وإفريقية الوثنية.

كان واليًا، وسفيرًا، وراوية للأحاديث، وخطيبًا، وفقيهًا، وسياسيًا من الطراز الرفيع.

كان رجل المآزق والمهمات الصعبة والمواقف الحرجة، وحسبه أنه كان صحابيًا جليلاً، صالحًا، ذا مال صالح، جعله الرسول ﷺ أنموذجًا ودليلاً للتعامل المتوازن: «**نِعِمَّا الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ**» (أخرجه أحمد).

فهو ﷺ يشكل أنموذجًا متميزًا من الصحابة الكرام، ومع ذلك، لم يسلم من الإساءة والتشويه، بل يُعتبر من أبرز النماذج والرموز، التي تعرَّضَت لكثير من حملات التشويه والافتراء والقراءات الخاطئة.

- غياب المرجعية وفقدان الارتكاز:

وقد يكون هذا الحال الثقافي، بما يمتلك من وسائل الإعلام، ووسائل التشكيل الثقافي الأخرى، هو أخطر فتنة للجيل المسلم، الذي لا يجد نفسه في تاريخه، ولا في واقعه، وإنما لا يجد نفسه إلا عند (الآخر)، الذي قد يمنح له هوامش من الحرية، فما يقوله في الأسواق، والإعلام، والأندية، والمؤسسات الفكرية هناك، قد لا يستطيع أن يقوله في أي مكان في بعض بلاد العالم الإسلامي.

وبالمقابل، نجد من رفع بعض الصحابة عن مقام البشرية، وادعى له العصمة عن الخطأ في كل شأن،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ورأي، واجتهاد، فتجاوز به مقام النبوة، في حدود وأبعاد العصمة، ورفعه إلى مقام الألوهية، كما هو الحال في إصابات التدين، التي لحقت بأصحاب الأديان السابقة!!

و لم يختلف الحال من حيث النتيجة، بين من حاول إلغاء وإسقاط حقبة الصحابة من أعداء الدين، لأنها مرحلة الفتن والخصومات والاقتتال، فهي لذلك لا تليق بموقع التلقي والتأسي ومعالجة الواقع (!!) وبين من رفع الصحابة عن مستوى البشر إلى مستوى العصمة، وناط العطاء بالمعصوم، وغيب هذا المعصوم عن واقع الأمة والإجابة عن إشكاليات حاضرها والتحضير لمستقبلها.

ولعل المشكلة كلها، في الكثير من دراسات الداخل الإسلامي لهذه الحقبة، إنما تتمثل في منهج التعامل، وأدوات الفحص والاختبار والنقد والمراجعة والتقويم.. المشكلة مشكلة منهج أولاً وقبل كل شيء، وإذا لم يصوب المنهج فسيبقى الإنتاج مختلاً.

لذلك نقول: إن هناك بعض المسلمات أو المرتكزات الأساسية، التي تشكل نقاط الانطلاق المنهجية، وهذه المسلمات مقررة وثابتة بالتواتر، أو ما يشبه التواتر.

فجيل الصحابة، جيلٌ رضي الله عنه، وأنزل السكينة عليه، وشهد له الرسول ﷺ بالخيرية.. «والمعروف عقلاً وشرعًا، أن الله لا يرضى إلا عن عبدٍ علم أنه يوافيه على موجبات الرضا، ومن رضي الله عنه لم يسخط عليه أبدًا»، كما يقول ابن تيمية، رحمه الله.

ويقول أبو نعيم، عن أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها: «فَمَنْ أَسْوَأُ حَالا مِمَّنْ خَالَفَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وآبَ بِالْعِصْيَانِ لَهُمَا، وَالْمُخَالَفَةِ عَلَيْهِمَا، أَلا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِأَنْ يَعْفُوَ عَنْ أَصْحَابِهِ، وَيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ، وَيَخْفِضَ لَهُمُ الْجَنَاحَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ (آل عمران:159)، وَقَالَ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:215)، فَمَنْ سَبَّهُمْ وَأَبْغَضَهُمْ وَحَمَلَ مَا كَانَ مِنْ تَأْوِيلِهِمْ وَحُرُوبِهِمْ عَلَى غَيْرِ الْجَمِيلِ الْحَسَنِ فَهُوَ الْعَادِلُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَأْدِيبِهِ، وَوَصِيَّتِهِ فِيهِمْ، وَلا يَبْسُطُ لِسَانَهُ فِيهِمْ إلا مِنْ سُوءِ طَوِيَّتِهِ فِي النَّبِيِّ ﷺ وَصَحَابَتِهِ، وَالإِسْلامِ وَالْمُسْلِمِينَ» (أبو نعيم، تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة).

لذلك فإن الخوض في البحث في تاريخ الصحابة، دون امتلاك منطلقاته ومؤهلاته وأدواته، من القدرة على التحقيق في الروايات، وتحريرها ونقدها، والتمكن من معايير الجرح والتعديل، والنظر في هذه الحقبة من خلال تقويم الكتاب والسنة لها، والمنهج نفسه، الذي وضعه المحدثون، وخاصة بالنسبة لهذه الحقبة دون سائر حقب التاريخ الإسلامي، قد يوقع بالفتنة والاضطراب، وانتقاص الصحابة خير القرون، من حيث لا يعلم.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ولابد هنا من الإشارة إلى قاعدة منهجية علمية تربوية تعليمية مقررة، وهي أن لا يُعْرَضَ على الناس من مسائل العلم، إلا ما تبلغه عقولُهم، قال الإمام البخاري، رحمه الله: «بَاب مَنْ خَصَّ بِالْعِلْمِ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ كَرَاهِيَةَ أَنْ لا يَفْهَمُوا» (فتح الباري 199/1)..

وقال علي، رضي الله عنه: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟».. قال الحافظ في الفتح تعليقًا على ذلك: « وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُتَشَابِهَ لا يَنْبَغِي أَنْ يُذْكَرَ عِنْدَ الْعَامَّةِ».

ومثله قول ابن مسعود، رضي الله عنه: «مَا أَنْتَ مُحَدِّثًا قَوْمًا حَدِيثًا لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ» (أخرجه مسلم).

لذلك، لابد من التحقق والتثبت من الروايات المذكورة حول الفتن، ومن ثم دراستها وتحليلها، بعد فحص إسنادها، والتعامل مع متونها، من خلال تحكيم قيم الدين في الكتاب والسنة، لبيان الخطأ في الاجتهاد.

والمعروف عند أهل العلم، أن أكثر النقول من المطاعن، يرويها المعروفون بالكذب، مثل أبي مخنف لوط بن يحي، ومثل هشام بن محمد بن السائب ...الخ.

لذلك لا يجوز من الناحية العلمية والموضوعية والمنهجية، رد ما ورد بالتواتر في فضل الصحابة، وخيريتهم، وخصائصهم، بنُقُولٍ بعضها منقطع وبعضها محرف.. وحتى لو سلم السند في بعض الأحيان، فلابد من فحص المتن بمعيار الكتاب والسنة.

فالقاعدة المعروفة عند العلماء، هي الحكم بشذوذ الحديث وردِّه، إذا خالف الثقة من هو أوثق منه..

فكيف إذا خالفت الروايات التاريخية، النصوص المتواترة، التي شهدت بالفضل والخيرية والرضا؟!

ولما كان الصحابة بشرًا من البشر، الذي يجري عليه الخطأ والنسيان والصواب، وكانوا مادة التنزيل الخالد وأوعيته، التي تمثل النماذج العملية لتعامل البشر مع المقدس، أو لتعامل الإنسان مع نصوص الوحي، وتبين أقدار التدين، بكل ما يعتريها من هبوط وارتقاء، لذلك كله فإن ما يقع منهم من خطأ وتوبة وعودة إلى الحق، وانصياع للصواب، مطلوب أيضًا كوسائل معينة على التأسي، والاقتداء، لاكتمال البناء في كل الظروف والأحوال، التي تعرض لها المسيرة البشرية.

وقد تكون المشكلة في قراءاتنا ودراساتنا التاريخية وسير الأعلام، أو الكثير منها، كما أسلفنا، أنها مرتهنة لمناهج وثقافات بعيدة عن قِيَمِنا وأصولِنا ومرجعيتِنا، ونسقنا المعرفي، لذلك جاءت في معظمها -إلا مَن رَحِمَ الله- مطبوعة، بنظرات وفلسفات غريبة عن طبيعة هذا الدين، حيث توهم الكثيرُ من الباحثين أن تدينَ الإنسانِ وإيمانَهُ، لا يمنَعُهُ في مجال الحياة والسياسة، من المكر والدهاء والكذب والانتهازية، والوصولية والأثرة، لذلك تأتي الصورة أقرب ما تكون إلى الشخصية الخرافية المتناقضة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وبهذه الرؤية والثقافة الانشطارية، شُوِّهَتْ رموزُنا، وقرئت بأبجديات مخطئة وغريبة عن مناهجنا وقيمنا، وانتقيت رويات هالكة وضعيفة ومنحازة، فلم تزدنا تلك المعارف والدراسات إلا بعثرة وارتباكًا وحيرة، وحسبنا أن نورد ما أخرجه الإمام أحمد، رحمه الله، بإسناد صحيح إلى محمد ابن سيرين، قال: «هَاجَتِ الْفِتْنَةُ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَشَرَةُ آلافٍ، فَمَا حَضَرَ فِيهَا مِائَةٌ، بَلْ لَمْ يَبْلُغُوا ثَلاثِينَ»!

فأين هذا الواقع، وهذه الحقيقة مما ذهب إليه القصاصون، والمؤرخون غير المحققين، والمغرضون، من التهويل والتضخيم، واعتماد الروايات الضعيفة والهالكة للنيل من جيل القدوة؟!

وعلى الرغمِ من وجودِ دراساتٍ مقدورةٍ في مجالِ التحقيقِ لموقفِ الصحابة، واعتمادِ موازين رجال الحديث في القبول والردِّ، إلاَّ أن هذه الدراسات لم تَصِل إلى مرحلة تكوين الثقافة التأصيلية والوثائقية المطلوبة.

- منهج التربية النبوية:

ولعل من القضايا المهمة والأساسية في تقديري، ونحن بصدد رؤية بعض الآفاق المستقبلية، التي تقتضي منا استشراف الماضي، وخاصة مرحلة التأسي، مرحلة خير القرون، سعيًا في أن يعيننا ذلك على الانطلاق الحضاري من خلال دراسة ظروف وشروط وممارسات الولادة الأولى لمجتمع خير القرون، ونماذجها المتألقة، التي تشكل بحق المرتكز الحضاري، والإشعاع الثقافي، والمرجعية والمعيارية، المشهود لها، بالنسبة للمسيرة الإسلامية في كل عصر، أن نتوقف قليلاً عند بعض التأملات في النقلة النوعية التي حققها الإسلام في حياة هذا الجيل على يد الرسول ﷺ وكيفيات التربية النبوية له، وصور التعامل مع جميع الظروف والأحوال والأشخاص، وكيف تحققت شهادة الرسول ﷺ لهذا الجيل، ليصبح مؤهلاً لأن يشكل المرجعية، وبالتالي التصويب والشهادة على الناس: ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ...﴾ (الحج:78).

وقد يكون من أبرز القضايا، التي تستدعي التوقف والدعوة إلى التأمل الطويل، هي أن العملية التربوية، أو المدرسة النبوية في التربية، تعاملت مع كل الأعمار، تعاملت مع الإنسان طفلاً، ومراهقًا، وراشدًا، وكهلاً، وشيخًا، وذكرًا وأنثى، واستطاع الإسلام فعلاً أن يشكل عطاءً لهؤلاء جميعًا في كل ظروفهم وأحوالهم.

ونستطيع أن نقول: إن الإسلام تعامل مع الإنسان من خلال الاستطاعة، والحالة التي هو عليها، فلم يرفض أحدًا، بحيث لم يُبْقِ إنسانًا خارج الخطاب الإسلامي، فتحققت الاستجابات من الشباب والشيوخ، والرجال والنساء، والأطفال، وكلٌ وجد نفسه في الإسلام.

لذلك نلاحظ أن جيل الصحابة، الذي تربى على عين النبوة، يشكل نماذج لهؤلاء جميعًا، كما أن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الإسلام تعامل مع الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والثقافية جميعها.. وبذلك تأهل جيل الصحابة، الذي شهد له الرسول ﷺ، وزكاه الله ورضي عنه، ليكون شهيدًا على الناس، كما أسلفنا.

وقدم الأنموذج للتعامل مع كل الثقافات، والحضارات، والبيئات، والمناخات، والظروف والأحوال، وكان قادة الفتح نماذج مضيئة للإسلام، بعد أن تربوا في مدرسة النبوة، لتصبح هذه التربية دليلاً لإعادة البناء.. تمت هذه التربية، وعلى مختلف الأصعدة، ومختلف الحالات، في فترة ثلاثة وعشرين عامًا، فكانت أمة من خلال كتاب ونبوة، ممتدة على الزمن، وهذه المدة قد لا تكفي لزراعة شجرة ورعايتها.

- خلود معجزة النبوة الخاتمة:

لذلك عندما نقول: إن المعجزة الإسلامية -القرآن وبيانه النبوي- تمثلت أو تحققت في إنتاج هذا الجيل الأنموذج، لا نعني بأنها أنتجته من خلال القفزات من فوق السنن الجارية وعزمات البشر والأسباب والأقدار التي شرعها الله، وإنما نعني أنها تميزت بتعاملها مع السنن والاستطاعات البشرية، و لم تخرق السنن.. أو بعبارة أخرى، لم تتعامل مع السنن الخارقة، لذلك لم تكن كمعجزات الأنبياء السابقين، مادية وخارقة للعادة، مما يلمح إلى توقيتها وانتهائها بغياب الأنبياء، على الرغم من أنه كانت للنبي ﷺ معجزات مادية خارقة للعادة أيضًا، إلا أنها لم تعتبر المعجزة؛ لأن الإيمان بها نوع من الإيمان بالغيب، لعدم شهودها والتعامل معها، وإنما اعتبرت المعجزة هي القرآن، الذي لا يستطيع البشر الإتيان بمثله، وهو في الوقت نفسه مستمر وخالد، يمكن تنزيله والتعامل معه في كل عصر، من خلال عزمات البشر واستطاعاتهم.

لذلك قلنا: إن المعجزة الإسلامية، جاءت لتأكيد السنن وليس لخرقها.. ولو لم يكن ذلك كذلك، لكان التجديد وإعادة الإنتاج يمثل إشكالية يصعب تجاوزها، وكان بحاجة إلى نبي مرسل، وإنما كانت المعجزة الإسلامية، في تنزيلها على الواقع، تأكيدًا للسنن الجارية، وتعاملاً معها، وليس خرقًا لها.

ولئن كانت المعجزات المادية خرقًا للأسباب، ودليلاً على قدرة الله ووجوده، فإنها من وجه آخر، دليل على اطراد الأسباب، وأنه لا يملك تعطيلها إلا الله، الذي خلقها.

إن المعجزة الإسلامية وخلودها، وامتدادها، يكمن في أنها تعاملت مع السنن الجارية، وأكدت اطرادها، وتحققت من خلال عزمات البشر، الذين أدركوها وأحسنوا تسخيرها، فكان جيل الصحابة، رضي الله عنهم، الذي يشكل دليل التعامل، وسبيل إعادة البناء في كل زمان ومكان، تتوفر له الظروف، وتتحقق فيه إمكانات ومؤهلات التسخير.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

خاتمة

هذه الرسالة الموجزة، إنما جاءت لبيان ما للصحابة الكرام، رضي الله عنهم، من فضائل وموقع قيادي متميز في مسيرة النبوة وصَحْبِها ورَكْبِها الممتد، بل في مسيرة الإنسانية التاريخية، فشأنُهُم ليسَ كَشَأنِ غيرِهِم، وعمَلُهُم لَمْ يُدَانِهِ أحدٌ ممنْ سَبَقَهُمْ، وَلَنْ يَلْحَقَ بِهِ أَحَدٌ ممنْ جَاءَ بَعْدَهُم، ويكفي أن نعي أبعاد قوله تعالى:

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ .. ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ (البينة:8).

ولئن كانت فترة السيرة فترة تنزيل قيم الوحي وتسديده للعقل البشري، برعاية النبوة، فإن فترة الخلافة الراشدة هي فترة حاكمية البشر الكاملة بعد انقطاع وحي السماء بوفاته ﷺ.

وقد آثرنا، في هذه الرسالة، أن نتجاوزَ الحديثَ عنِ الفتنِ، التي باتت تستهوي كثيراً من الباحثين والكتّاب، من الذين لا يستطيعون العيش وبناء الزعامات إلا في مناخها، وعلى رأسها الفتنة الكبرى ومقتلِ سيدنا عثمانَ، رضي اللهُ عنه، لعدةِ أسبابٍ، لعل من أهمها أن استدعاء الفتن التاريخية بات أشبه بفخاخ منصوبة للأمة، لتمزيق نسيجها الاجتماعي، وبعثرة تفكيرها، وإنهاك قواها، وإصابتها بالكساح الحضاري، والحيلولة دون نهوضها، وجعل بأسها بينها شديداً، وإيقاظ نزعات التعصب والطائفية والشعوبية، دون القدرة على التحقق بالعبرة.

إضافة إلى أن الرواياتِ التاريخيةَ لأخطر مرحلةٍ من حياتِنَا المرجعيةِ حملت الكثير من الأهواء، ولَمْ تخضعْ، بعمومها، لمعاييرِ الجرحِ والتعديل، والمراجعة، والقَبُولِ والرَدِّ، مما يجعل الصورةَ الدقيقةَ غائبةً وغائمة.

إن مواجهة الفتن لا تكون بالمزيد من حمل الحطب والنفخ بالكير وإيقاد النار، وإنما بالمبادرة بالأعمال الصالحة، استجابة لقول الرسول ﷺ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا**» (أخرجه مسلم).

لقد كان جيل الصحابة جيل تحقيق المعجزة الخالدة، بل كان معجزة من معجزات الإسلام، ومعيارًا لكل جيل، في كل زمان ومكان.

إن هذا الجيل، أو هذا القرن وهؤلاء الأصحاب، تربوا على عين النبوة، وبحضانة الوحي في التسديد والتأييد والتدريب، فكانوا محل الاتباع بإحسان بعد وفاة الرسول ﷺ حيث توقف الوحي من السماء، وإنْ امتد قرآناً وسنة خالدين، مجردين عن حدود الزمان والمكان، وكانا ولا يزالان مصدر إلهام وهداية للإنسان على مدى الزمن.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فجيل الأصحاب، رضي الله عنهم، تربى على عين النبوة، وبرعاية النبوة، وتربية النبوة، وتدريب النبوة، الأمر الذي أهّله ليكون محل الاتباع، المشروط بإحسان.. إنهم المنجم الثري الخالد للعطاء.

ولعل الأمر اليوم بات يتطلب كثيراً من التأمل والتفكير والاجتهاد والنظر وتقويم كيفيات ومواقع الاقتداء وحسن اختيار أدوات المقاربة مع هذا الأنموذج، الذي استوعبت حياته الأنموذج جميع جوانب الحياة وشكلت دليلاً لها، حيث المطلوب أن نطرح باستمرار السؤال التالي:

لماذا كان هذا الجيل هو جيل الأنموذج ومحل الاتباع بإحسان؟ وبماذا تميز عن غيره من الخَلق؟ وما هي الخصائص والصفات، التي اجتمعت له فميزته وجعلته محلاً للتأسي؛ تلك الصفات والخصائص، التي بها كان خير القرون؟

كيف نعمل على استرداد هذه الخيرية أو بعضها، ونحاول باستمرار وضع الخطط والمناهج وأدلة العمل والوسائل المناسبة، بعد إبصار تلك الصفات لكيفية تنزيلها على إنساننا، بحيث تشكل الرؤية الأساس لمؤسساتنا التربوية والإعلامية والاجتماعية والسياسية في محاولة لإيجاد مقاربات مع هذا الجيل، سعياً لتصويب المسالك والمسارات.

ومما لا شك فيه أن من طبيعة الأنموذج أن يبقى معياراً متفرداً لا يتكرر، ولا يتحقق بكل خصائصه وأبعاده وصفاته؛ لأن ذلك من خصائص المعيارية، لذلك فقد لا نستغرب عدم امتداد الجيل بكامل مواصفاته، ونوقع أنفسنا في إشكاليات من الخلل المنهجي وسوء الفهم وسوء التقدير، فنقول: إن الأنموذج والمرحلة الذهبية في الحياة الإسلامية لم تمتد أكثر من كذا سنة ومن ثمّ بدأ التدهور(!)

ولو أدركنا حقاً خصائص وصفات وطبيعة الأنموذج والمثل الأعلى لعرفنا استحالة التكرار، ولعرفنا لماذا لم يمتد الرشد أو الخلافة الراشدة، ذلك أن الحياة الإسلامية استمرت صعوداً وهبوطاً، وقرباً وبعداً من هذا الأنموذج؛ وتبقى المقاربة هي الطريق إلى بلوغ الكمال والاكتمال.

وعلى الرغم من الفترات المتألقة والمضيئة في تاريخنا الحضاري الطويل يبقى للأنموذج تميزه وتفرده، ولا تخرج جميع المحاولات عن المقاربة مع هذا الأنموذج، لكن لا يمكن أن تُشكل بديلاً عنه.

من هنا ندرك عِظَمَ المخاطرِ والآثارِ المترتبةِ على محاولات النَيْل من هذا الجيل، الذي يمثل قاعدة البناء، وأنموذج تنزيل الإسلام على الواقع، ومحل التأسي، والمرتكز الحضاري.

وندرك أبعاد الجريمة الكبرى لمن كان شأنهم في تاريخ الأمة هدم الجيل الأنموذج، وحرمان الأمة من دليل الاتباع، والخوض في عدالة الصحابة بعدما شهد لهم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومحاولة اختزال هذا الجيل بكامله، المشهود له، بشخص أو فرد تدعى له العصمة عن الخطأ، وهو بشر من البشر، مهما كان شأنه وعلمه ومكانته.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إن هدم الأنموذج في حياة الأمة، بدوافع طائفية أو شعوبية أو عنصرية حاقـــدة، يســـلمها إلى فقـــدان البوصلة والمعيار وينتهي بها إلى الافتقار إلى المرجعية ونقطة الارتكاز الحضاري المأمونة، ويدفعها إلى التيه وضياع الجهات وغياب المعايير الضابطة لمسيرة الحياة.

وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفهرس

الموضوع

* **مقدمة:** .....

* **محل الاقتداء والتأسي** .....

* **جيل الاتباع** .....

- أبو بكر الصديق ﷺ أنموذجاً: .....

- من تعظيم البطل إلى صناعة البطولة: .....

* **جيل المعيارية** .....

* **بشرية الصحابة** .....

- ميزة الرجوع إلى الصواب: .....

- عمر بن الخطاب ﷺ أنموذجاً: .....

- الرسول ﷺ يسدد اجتهاد الصحابة: .....

* **جيل استدعاء الوحي** .....

* **جيل الشهود الحضاري** .....

* **جيل التكامل المعرفي** .....

* **جيل إظهار الدين** .....

* **جيل الارتكاز الحضاري** .....

* **قراءات خاطئة** .....

- عمرو بن العاص ﷺ أنموذجاً .....

* **غياب المرجعية وفقدان الارتكاز** .....

* **منهج التربية النبوية** .....

- خلود معجزة النبوة الخاتمة .....

* **الخاتمة** .....

* **الفهرس** .....

هذه الرسالة.. مجموعة من الأفكار والبصائر، مستوحاة من مشكاة النبـــوة ، كتبت في مناسبات مختلفة، حول جيـــــل الصحابة.

تتأكد أهميتها أنها تجيء ، في هذه الموجة من الفتن العمـياء، كمحاولة للتأصيل والتوجه نحو المعالجة بالعمـــل الصالح..

يقول، عليه الصلاة والســـــلام : «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْـــــلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيمْسِي كَافِرًا، أَوْ يمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا».

ذلك أن الكثير من فتن اليـوم هي رجع الصدى للفتنة الكبرى، التي ما تزال تداعياتها تشكل فخاخاً للمسلمين عبر التـــاريخ، حيث ما يزال النفـاق والباطنية هو المهد ، الذي تنمو فيه وعلى جوانبه كل العلل والإصابات.

والمخـــــرج إنما يكون بالإعـــراض عن الخوض مع الخائضين، والعمل الإيجابي، والتبصر بأسباب الفـــتن وأساليب الاختراق، والتعرف على حقيقة الثقافات والجاهليات المغشوشة، من الذين لم يحسن إسلامهم، فحاولوا تشويه الإســـــــلام من الداخل، وتوجيه سهامهم إلى الصحابة، نمـــاذج الاقتداء، والاتبـــــاع بإحسان.

وهذه الفـــتن، التي يشتد أوراها اليوم، لا تخرج، في الحقيقة، عن كونها عقوبات على تقصيرنا، ومنبهات على مواطـــن الخلل في حياتنا؛ فما أكثر العبر وأقل المعتبرين.

ويبقى أن نقـــــول: إن أي استهدافٍ لجيل الأصحاب، من مثـــل الخلفـــــاء الراشدين، هو في حقيقته استهدافٌ لقـــيم الدين وصدقية القـــــرآن الكريم، الذي أثنى عليهم ، وتمـزيقٌ لوحدة المســـلمين، وتعطيلٌ للمنهج المأمـــون لكيفية تنزيل القـــيم الإسلامية على واقع الناس.